كلية الشريعة والدراسات الإسلامية

College of Sharia & Islamic Studies

مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية

Journal of College of Sharia & Islamic Studies

نصف سنوية – علمية محكمة

Academic Refereed – Semi-Annual

ISSN 5545 – 2305

المجلد ٣٤– العدد ٢ – خريف ١٤٣٨هـ / ٢٠١٦م

Vol. 34– No.2, 2016 A / 1438 H

"معالم المنهج العقدي في التفسير عند سيد قطب"

تأليف

د. عودة عبد عودة عبد الله

أستاذ مشارك بقسم أصول الدين / جامعة النجاح الوطنية – فلسطين

أ.إبراهيم عبدالرحيم

أ. عامر جاد الله

محاضران بكلية الدعوة الإسلامية قلقيلية–فلسطين

ملخص:

يتناول هذا البحث أبرز معالم المنهج العقدي في التفسير عند سيد قطب رحمه الله من خلال تفسيره (في ظلال القرآن)، ذلك أن منهج سيد في عرض العقيدة جاء منهجاً متميزاً، لأنه ركّز على دور العقيدة في بناء النفوس، وأثرها في تغيير الواقع، وأعرض عن التعقيدات اللفظية، والمناهج القائمة على الفلسفة والجدل وعَمِد سيد قطب إلى ربط العقيدة بالأحكام التشريعية وبنظرية التصوير الفني، وحدد دور العقل في فهم العقيدة، ورد على الأقوال الشاذّة والمنحرفة، منطلقاً في تقرير مبادئ العقيدة من القرآن الكريم والسنة النبوية وفهم السلف.

ABSTRAC:

This research deals with the most prominent features of the creed methodology in Sayyid Qutb interpretation. the methodology of Sayyid Qutb was excellent in presenting the creed, Because he concentrated on the role of creed in disciplining the selves, And its impact in changing the reality, And he avoided the complexities of verbal, and the methodologies based on philosophy and contr Sayyid Qutb combined between the creed and the Shari'ah rules with artistic depiction, he also determined the role of the mind in complete understanding of the creed, he refuted all abnormal and pervert opinions, all this interpretation based on emphasizing the principles of creed from the Holy Quraan, Sunnah and the understanding of antecedents of companions and followers of prophet mohammed PBUH .

مقدمة:

الحمد لله حمداً يوافي نعمه ويكافئ مزيده ويدفع عنا بلاءه ونقمه، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه أجمعين، وعلى من سار على نهجهم إلى يوم الدين، أما بعد ..

فلا شك أن من أبرز أهداف القرآن الكريم هداية الناس وإخراجهم من الظلمات إلى النور؛ ومن أجل تحقيق هذا الهدف ركز القرآن الكريم على بناء العقيدة الصحيحة في النفوس، بأساليب متنوعة وطرق متعددة.

من هنا رأينا الاهتمام الكبير من قبل المفسرين بتوضيح آيات العقيدة والدوران في فلكها، وكان لكل منهم منهجه الخاص في تناول هذا الموضوع، فبعض قدماء المفسرين تمثل منهجه في عرض العقيدة بطريقة تأثرت بأساليب الفلاسفة ومناهجهم التجريدية. وقد هيأ الله تعالى لهذه الأمة مفسراً ربانياً، جعل من معالم العقيدة محط اهتمامه وتركيزه، فجاء تفسيره (في ظلال القرآن) نقلة نوعية في الاتجاه العقدي في التفسير، فأظهر العقيدة حية متوقدة معاشة على أرض الواقع، من خلال تركيزه على دور العقيدة في بناء النفوس، باعتبارها الموجه الحقيقي لكيان الإنسان في هذه الحياة.

ويأتي هذا البحث في محاولة للكشف عن معالم المنهج العقدي عند سيد قطب من خلال تفسيره (في ظلال القرآن) بغرض الوقوف على ما فيه من رؤية تجديدية، دون اجتزاء أو تسرع في الفهم، وفق منهج علمي، بعيد عن التعصب والمغالاة.

وقد سار هذا البحث وفق المنهجين الوصفي والتحليلي، ثم المنهج الاستنباطي، وذلك باستقراء المواضع والنصوص الواردة في ظلال القرآن حول قضايا العقيدة، وتحليل رأي سيد قطب فيها، بهدف تحديد معالم المنهج العقدي في التفسير عند سيد قطب رحمه الله.

وبعد البحث والتدقيق والتحرّي في الدراسات القرآنية المتعلقة بمناهج المفسرين, وجدتُ بعض الدراسات ذات العلاقة بموضوع هذا البحث، ومن أهمها:

١- تعريف الدارسين بمناهج المفسرين/صلاح عبد الفتاح الخالدي
٢- في ظلال القرآن في الميزان/ صلاح عبد الفتاح الخالدي
٣- التفسير أساسياته واتجاهاته/ فضل حسن عباس
٤- اتجاهات التفسير في العصر الحديث/عبد المجيد المحتسب.

وبالنظر في هذه الدراسات يتبين أنها تتناول منهج سيد قطب في التفسير بشكل عام، وهو ما أفاد منه الباحث في بعض الجزئيات التي تناولت قضايا العقيدة عند سيد قطب. بينما تميز هذا البحث بالاقتصار على دراسة نماذج لموضوعات العقيدة في تفسير الظلال، لاستنباط معالم المنهج العقدي في التفسير عن سيد قطب.

المبحث الأول

أولاً: لمحة موجزة حول الاتجاه العقدي في التفسير المعاصر

جاء القرآن الكريم بشقيه المكّي والمدنيّ دعوة صريحة لتوحيد الله عزّ وجلّ، والإيمان به، وغرس العقيدة الصّحيحة في النّفوس، بدلا من العقائد الفاسدة التي تراكمت على العقول والقلوب، بسبب انحرافها عن منهج الأنبياء واتّباعها الهوى وسبل الشّيطان، يقول ابن القيم –رحمه الله–: "فإن القرآن إمّا خبر عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله ... وإمّا دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له... فالقرآن كلّه في التوحيد وحقوقه وجزائه، وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم"[(١)]. ولقد كان الصّحابة الكرام يفهمون آيات العقيدة دون تكلّف أو تعسف، يؤمنون بها كما جاءت، تقودهم في جهادهم باللسان والسّنان إلى ساحات الوغى، وبقي الأمر على ذلك حتى ظهرت في الأمّة الفرق والمذاهب، فكان من الطبيعي كما يقول الدكتور فضل عبّاس: "إن تلجأ كل فرقة للقرآن الكريم تأخذ ما تؤيّد به ما ذهبت إليه، وكثيرا ما كانت تتكلف وتتعسّف، وكان طبيعيا أن يؤثر ذلك، وأن تنتقل عدواه إلى كتب التفسير. وهذا الذي كان، وإذ بهذه الكتب كأنما هي ساحات واسعة ورحاب فسيحة تحتدم فيها المعارك الجدلية والآراء المختلفة"[(٢)]. وكان من نتيجة ذلك أن تبنّى كل مفسر مذهباً عقدياً مختلفاً عن الآخر، فترى الزمخشري يعتقد مذهب المعتزلة، وبالتالي ينعكس هذا الاعتقاد على تفسيره، حيث يحشد عند تفسيره لآيات العقيدة

---

(١) آل الشيخ، عبد الرحمن بن حسن: فتح المجيد شرح كتاب التوحيد، راجع حواشيه: عبد العزيز بن باز، ط١، القاهرة: دار الحديث، ١٩٩٢، ص١٥.

(٢) عباس، فضل حسن: التفسير أساسياته واتجاهاته، ط١، الأردن: مكتبة دنديس ٢٠٠٥، ص٥٣٦ .

مايؤيد مذهبه ويقويه، وترى الطّبري وابن كثير والبغوي وغيرهم يعتقدون مذهب أهل السنّة والجماعة فينعكس ذلك على تفاسيرهم، وهكذا، قلما تجد مفسراً إلا وانعكس ما يعتقده على تفسيره وخاصة على آيات الصّفات، وغدت هذه التفاسير ساحات نقاش ومواجهات جدلية وكلامية.

أمّا في هذا العصر والذي يبدأ من نهاية القرن التاسع عشر أو بداية القرن العشرين، فقد كان عصرا شديداً على المسلمين يختلف عن العصور الأولى من تاريخهم، فإن كانت تلك العصور عصور العزّ والرّفاه، والاستقرار وسيادة الإسلام وحكمه، فإنّ هذا العصر شهد تحكم الماديّة والجاهليّة الغربيّة على العالم، ثم ظهور فلاسفة ومفكرين لا دينيين، وظهرت الماركسيّة والوجوديّة والدارونية والقوميّة والرأسماليّة والعلمانيّة والاشتراكيّة، وغيرها من المذاهب والأفكار الهدامة، وفي هذا العصر تأخر المسلمون، ووصلوا إلى درجة بالغة من الانحطاط، واستعمرت بلادهم، ومزّقت شرّ ممزّق، ونحّي الإسلام عن سدّة الحكم والتوجيه، وبموازاة ذلك قامت حركات إسلامية في بلاد الإسلام تدعو الأمّة إلى العودة إلى دينها، وتطبيق شريعة ربّها، والتّخلي عن تبعيّتها للأعداء، واستقطبت هذه الحركات كثيرا من فئات وطبقات الأمّة، من مفكرين وعلماء، ومتخصّصين في كافة المجالات، ونادى العلماء والمصلحون في الأمّة بأن يكون القرآن الكريم سلاحهم في مواجهة الأعداء، وأن تبدأ الأمّة به أولا قبل سواه في دراسته وتدريسه، وتدبّره وتفسيره واستلهام طرق الإصلاح والدّعوة والحركة والتربية منه، واستجابت قطاعات واسعة من الأمّة لهذا النّداء، وتوجّهت الهمم والطّاقات نحو القرآن الكريم يستنطقون آياته ويهتدون بأحكامه وعقائده، وبرز في الأمة العديد من المفسّرين وكان لهؤلاء المفسّرين اتجاهاتهم

ومدارسهم في تأليف كتب التفسير، وعليه ظهرت تفاسير متنوعة وفق اتجاهات أصحابها، ولكن يجمع بين هذه التفاسير – المختلفة المدارس والاتجاهات – دعوتها لإصلاح أحوال المجتمع على أساس القرآن، والوقوف أمام الأفكار والعقائد والمذاهب الجاهليّة على أساس القرآن.

وبالرجوع إلى حديث العلماء المعاصرين عن الاتجاهات المعاصرة في التفسير نجد أن الدّكتور عبد المجيد المحتسب قسّم اتّجاهات التفسير المعاصر إلى ثلاثة اتّجاهات هي[٣]:

١. الاتّجاه السّلفي
٢. الاتّجاه العقلي التّوفيقي
٣. الاتّجاه العلمي

وهو بذلك لم يخصص للعقيدة اتجاهاً مستقلا ضمن هذه الاتجاهات، صحيح أنه ذكر في الاتجاه السّلفي بعض المفسرين الذين تأثروا بالسّلف في العقيدة في تفاسيرهم كالقاسمي مثلا[٤]، إلا أنه لم يبرز الاتجاه العقدي كاتجاه فاعل وأساس في الاتجاه المعاصر للتفسير. وكذلك فعل الدّكتور صلاح الخالدي حيث قسّم الاتّجاهات المعاصرة في التفسير إلى ستّة وهي[٥]:

---

[٣] المحتسب، عبد المجيد عبد السلام: اتجاهات التفسير في العصر الحديث، ط١، بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٧٣، ص٣٩ .

[٤] المرجع السابق، ص٤٦-٤٧ .

(٥) الخالدي، صلاح عبد الفتاح: تعريف الدارسين بمناهج المفسرين. ط١، دمشق: دار القلم ٢٠٠٢م، ص٥٦٦-٥٦٨ .

١. الاتّجاه الأثري
٢. الاتّجاه العقلي
٣. الاتّجاه العلمي
٤. الاتّجاه الاجتماعي
٥. الاتّجاه البياني
٦. الاتّجاه الحركي

حيث لم يخصّص اتجاهاً مستقلاً للعقيدة. ولم نجد سوى الدّكتور فضل عبّاس أفرد للعقيدة اتّجاها مستقلا ضمن الاتّجاهات الحديثة في التفسير حيث قسّمها إلى خمسة هي[٦]:

١. الاتّجاه البياني
٢. الاتّجاه الفقهي
٣. الاتّجاه العقدي
٤. الاتجّاه العلمي
٥. الاتّجاه الموضوعي

فجعل الاتّجاه العقدي ثالث هذه الاتّجاهات، ثمّ بين أن الاتّجاه العقدي في التفسير المعاصر يرتكز على خمسة عناصر أساسية هي[٧]:

١. التّركيز على أنّ الإسلام دين العقل.
٢. عدم التعقيد وسهولة العرض.

[٦] عباس، فضل : التفسير أساسياته واتجاهاته، ص٣٩٧ .
[٧] المرجع السابق، ص٥٣٧-٥٤٥ .

٣. الردّ على الشّبهات والافتراءات.

٤. تضييق نطاق الخلافات الدّاخلية.

٥. إبراز خصائص العقيدة وأنّها ربّانيّة، عالميّة، وتمتاز بالثّبات والشّمول والواقعيّة والايجابيّة والتوازن.

والناظر إلى التفاسير المعاصرة يلحظ تميز سيّد قطب رحمه الله في إبراز الجانب العقدي في تفسيره بفاعليّة وحيويّة وواقعيّة وجاذبيّة وسهولة ويسر، بعيدا عن التعقيدات اللّغوية والتفصيلات الفرعيّة الدّقيقة، وذلك لأنه كان يعي جيدا أن نقطة البداية للإصلاح الشمولي في المجتمع، والانقلاب على كل مظاهر الجاهليّة في الأمّة، تبدأ من العقيدة الإسلاميّة وليس من شيء سواها، لذلك كان التركيز على أن تكون نقطة البداية هي العقيدة. فعمد رحمه الله إلى طرح العقيدة بأسلوب آخر غير الأسلوب التّقليدي المعروف في كتب التفسير، إنّه الأسلوب السهل السلس الذي يلامس العقل ويتغلغل في أعماق القلب والوجدان، وما أجمل وأروع ما خطه قلم سيّد قطب لتوضيح هذه الفكرة التي سيطرت على كيانه وروحه في كتابه القيم (معالم في الطريق) في فصل بعنوان (لا إله إلا الله منهج حياة)[٨] .

ثانياً: المنهج الحركي التجديدي في عرض العقيدة عند سيد قطب

أخرج سيد العقيدة من مأزق التعقيدات اللفظية، وتيه الفلسفات الإغريقية، إلى عالم الواقعية والتجديد، فجعل فيها الحركة والحياة. فقد مرت على العقيدة فترة من الزمن امتدت لقرون عدة كانت عبارة عن قوالب جامدة من المصطلحات تتقاذفها ألسن المختلفين، وما المعارك الكلامية الطاحنة التي دارت بين المعتزلة وأهل السنة إلا

[٨] قطب، سيد: معالم في الطريق، بيروت، دمشق : دار الشروق، ص٨٣ .

خير مثال على ذلك. يقول رحمه الله: "ومن ثم عشت في ظلال القرآن هادئ النفس، مطمئن السريرة، قرير الضمير، عشت أرى يد الله في كل حادث وفي كل أمر، عشت في كنف الله ورعايته، عشت أستشعر إيجابية صفاته تعالى وفاعليتها ((أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ))[٩].((وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ))[١٠]. ((وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ))[١١]... إن الوجود ليس متروكاً لقوانين آلية صمّاء عمياء، فهناك دائما وراء السنن الإرادة المدبرة، والمشيئة المطلقة، والله يخلق ما يشاء ويختار، فالمنهج الإلهي كما يبدو في ظلال القرآن موضوع ليعلم في كل بيئة، وفي كل مرحلة من مراحل النشأة الإنسانية"[١٢].

لقد ربط سيد قطب العقيدة بالمثال، والفكر بالواقع، والنظرية بالتطبيق. فها هو يدلل على فكرته العقدية بمثال قرآني حيّ فريد، هو قصة أصحاب الأخدود الذين استشهدوا في سبيل فكرتهم وعقيدتهم وإيمانهم، يقول رحمه الله: "إنها قصة فئة آمنت بربها، واستعلنت حقيقة إيمانها ثم تعرضت للفتنة من أعداء جبّارين بطّاشين مستهترين بحق الإنسان في حرية الاعتقاد في الحق والإيمان بالله العزيز الحميد وبكرامة الإنسان

---

[٩] سورة النمل: الآية ٦٢.

[١٠] سورة الأنعام: الآية ١٨.

[١١] سورة يوسف: الآية ٢١.

[١٢] قطب, سيد: في ظلال القرآن. ٦مج. ط: ١٧. القاهرة, بيروت: دار الشروق. ١٩٩٢م، ١٣/١.

عند الله عن أن يكون لعبة يتسلى الطغاة بآلام تعذيبها، ويتلهون بمنظرها في أثناء التعذيب والتحريق"[١٣].

والمتأمل في ظلال القرآن يجده تفسيراً عقدياً من طراز جديد، وأسلوب غير معهود في عصر الأمة المتأخر، إنه تفسير يجسد العقيدة نظرياً وحركياً وفكراً وعملاً، بأسلوب التجديد والواقعية والحركية، إن كل موضوعاته تتحدث عن العقيدة واستعلاء الإيمان وأن جنسية المسلم عقيدته، والجهاد يكون من أجل العقيدة والجيل القرآني الفريد الذي تحقق في واقع البشرية زمن الرسول ﷺ ما تحقق إلا بالعقيدة والإيمان. يقول رحمه الله: "إن العقيدة الإسلامية يجب أن تتمثل في نفوس حيّة، وفي تنظيم واقعي، وفي حركة تتفاعل مع الجاهلية من حولها... يجب أن ندرك خطأ المحاولة وخطرها معاً في تحويل العقيدة الإسلامية الحيّة التي يجب أن تتمثل في واقع تام حيّ متحرك إلى نظرية للدراسة والمعرفة الثقافية لمجرد أننا نريد أن نواجه النظريات البشرية الهزيلة بنظرية إسلامية"[١٤].

ثالثاً: ربط العقيدة بالأحكام الشرعية وبنظرية التصوير الفني

من مظاهر الجِدّة والإبداع في الاتجاه العقدي في التفسير عند سيد قطب، ربطه لموضوع العقيدة بالأحكام الشرعية وبنظرية التصوير الفني، وفيما يلي بيان ذلك:

ربط العقيدة بالأحكام الشرعية:

١. يظهر التجديد بشكل واضح في تفسير سيد قطب عند تفسيره لآيات الأحكام، فيعمد إلى إبراز أثر العقيدة في الالتزام بالأحكام التشريعية، وبيان أن

[١٣] قطب: معالم في الطريق، ص١٧٣-١٧٤.

[١٤] قطب: في ظلال القرآن، ١٠١٣/٢.

من أهم أسباب الازدواجية اليوم بين الفكر والسلوك هو أن العقيدة لم تعد هي الفاعلة المؤثرة الموجهة للسلوك ومظاهر الحياة، ودعا المسلمين إلى إزالة هذه الازدواجية والقضاء على هذا الانفصام بين ما يؤمنون به وما يمارسونه في حياتهم، ودعاهم إلى أن تكون حياتهم صورة عملية واقعية لأحكام الإسلام ونظمه، وذلك عن طريق إعادة العقيدة إلى مكانتها في كيانهم، ولهذا يجهر بأن أحكام الإسلام وقوانينه لا يحميها نصوصها المجردة ولا يحميها حراسها من البشر ولكن تحرسها (القلوب النقية التي تستقر تقوى الله فيها وخشيته)[١٥] وهذا هو الفرق الجوهري الأصيل بين طريقة الإسلام في إقرار مناهجه وأحكامه وبين طريقة البشر العاجزة في إقرار مبادئها.

وعقد مقارنة بين نجاح الإسلام في تحريم الخمر رغم تغلغل ظاهرة شربه في المجتمع الجاهلي وبين فشل أمريكا في سن قانون بتحريمه سمي عند الأمريكيين (قانون الجفاف) تهكماً عليه. فقد فشلت رغم ما أنفقت عليه وما ضحت في سبيله بينما نجح الإسلام في تحريمه بكلمة (لقد نجح الإسلام لأنه أخذ النفس البشرية بسلطان الله وخشيته ومراقبته) [١٦]ولذلك كان يتوقف أمام الآيات التي تختم الأوامر والنواهي بالأمر بتقوى الله ومراقبته وخشيته، يتوقف ليبين السر التربوي والتشريعي المعجز في هذا، وليؤكد على أهمية العقيدة في الالتزام بالشريعة ووظيفة القلب في حراسة أحكام الإسلام. ويدعو المربين إلى ملاحظة هذا والتركيز عليه.

(١٥) المرجع السابق، ١٣٨٤/٣.

(١٦) المرجع السابق، ١٣٢/٢.

نقول لقد كان هذا التوجه عند سيد بحق رائعاً، فلم يكن تفسيره نظرياً بعيداً عن الواقع ومشاكل الحياة، بل كان يضع يده على موضع الخلل والمرض ليعالجه بدقة، فرحمه الله ونفع به المسلمين.

٢. ربط العقيدة بنظرية التصوير الفني في القرآن:

برع سيد رحمه الله في الحديث عن التصوير الفني في القرآن الكريم، ويقصد بالتصوير الفني: التعبير بالصور عن التجارب الشعورية وتكون أداة التصوير هي الألفاظ والعبارات لا الريشة والألوان، ويرى سيد أن هذا التصوير في التعبير هو أرقى أنواع الفنون لأنه لا يخاطب الذهن وحده وإنما يخاطب معه الحس والوجدان ويثير في النفس شتى الانفعالات. ويرى أن القرآن استخدم طريقة التصوير وجعله الأداة المفضلة في أسلوبه(١٧).

ولكن ما هي علاقة التصوير الفني بالاتجاه العقدي عند سيد قطب؟

يرى سيد قطب رحمه الله أن التصوير الفني استُخدم في معظم الآيات القرآنية، وكان له حضور بارز في آيات العقيدة على وجه التحديد، لما لذلك من دور مهم في الإقناع والتأثير والأخذ بجوامع القلوب، ومن أمثلة استخدام التصوير الفني في العقيدة كما عرضها سيد ما يأتي:

١) **تصوير مشاهد يوم القيامة،** حيث التصوير له فاعلية كبرى في التأثير في المخاطَب. قال تعالى: ((وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا * يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ

(١٧) قطب، سيّد: التصوير الفني في القرآن ، ط : ٤ ، بيروت ، القاهرة : دار الشروق ، ١٩٧٨م ، ص٣٢.

إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا))[١٨]. يقول: "ثم يعرض مشهداً من مشاهد ذلك اليوم، يصور ندم الظالمين الضالين. يعرضه عرضاً طويلاً مديداً، يخيل للسامع أنه لن ينتهي ولن يبرح. مشهد الظالم يعض على يديه من الندم والأسف والأسى ... حتى ليكاد القارئ للآيات والسامع يشاركان في الندم والأسف والأسى! (وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ)، فلا تكفيه يد واحدة يعض عليها. إنما هو يداول بين هذه وتلك، أو يجمع بينهما لشدة ما يعانيه من الندم اللاذع المتمثل في عضه على اليدين. وهي حركة معهودة يرمز بها إلى حالة نفسية فيجسمها تجسيماً. (يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا)، فسلكتُ طريقه، لم أفارقه، ولم أضل عنه. الرسول الذي كان ينكر رسالته ويستبعد أن يبعثه الله رسولاً! (يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا)، فلاناً بهذا التجهيل ليشمل كل صاحب سوء يصد عن سبيل الرسول ويضل عن ذكر الله. (لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي). لقد كان شيطاناً يضل، أو كان عوناً للشيطان (وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا) يقوده إلى مواقف الخذلان، ويخذله عند الجد، وفي مواقف الهول والكرب. وهكذا راح القرآن يهز قلوبهم هزاً بهذه المشاهد المزلزلة، التي تجسم لهم مصيرهم المخيف، وتريهم إياه واقعاً مشهوداً، وهم بعد في هذه الأرض، يكذبون بلقاء الله، ويتطاولون على مقامه دون توقير، ويقترحون الاقتراحات المستهترة والهول المرعب ينتظرهم هناك والندم الفاجع بعد فوات الأوان"[١٩].

[١٨] الفرقان: ٢٧-٢٩

[١٩] قطب: في ظلال القرآن، ٣١٤/٥.

٢) **تصوير مشاهد النعيم في الجنة**، حيث تم تصوير هذه المشاهد بصورة تتمتع بها الجوارح، قال تعالى: ((وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ * فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ *وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ * وَظِلٍّ مَمْدُودٍ * وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ * وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ * لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ))[٢٠] يقول: "ولأصحابنا هؤلاء نعيم مادي محسوس، يبدو في أوصافه شيء من خشونة البداوة ، ويلبي هواتف أهل البداوة حسبما تبلغ مداركهم وتجاربهم من تصور ألوان النعيم! إنهم {في سدر مخضود} والسدر شجر النبق الشائك. ولكنه هنا مخضود شوكه ومنزوع. {وطلح منضود} . . والطلح شجر من شجر الحجاز من نوع العضاة فيه شوك. ولكنه هنا منضود معد للتناول بلا كدٍ ولا مشقة. {وظل ممدود، وماء مسكوب} . . وتلك جميعاً من مراتع البدوي ومناعمه، كما يطمح إليها خياله وتهتف بها أشواقه! {وفاكهة كثيرة. لا مقطوعة ولا ممنوعة} . . تركها مجملة شاملة بغير تفصيل بعد ما ذكر الأنواع المعروفة لسكان البادية بالتعيين"[٢١].

٣) **تصوير مشاهد العذاب في النار**، ومن الأمثلة على هذا التصوير قوله تعالى: ((وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا * يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا))[٢٢]. يقول: "ويتجلى المشهد الرهيب فإذا الجبال الراسية الراسخة قد نسفت نسفاً؛ وإذا هي قاع بعد ارتفاع. قاع صفصف خال من كل نتوء ومن كل اعوجاج، فلقد سويت الأرض فلا علو فيها ولا انخفاض.

(٢٠) الواقعة: ٢٧_ ٢٩

(٢١) قطب: في ظلال القرآن، ١٠٩/٧

(٢٢) طه: ١٠٥- ١٠٨

وكأنما تسكن العاصفة بعد ذلك النسف والتسوية؛ وتنصت الجموع المحشودة المحشورة، وتخفت كل حركة وكل نأمة، ويستمعون الداعي إلى الموقف فيتبعون توجيهه كالقطيع صامتين مستسلمين، لا يتلفتون ولا يتخلفون وقد كانوا يدعون إلى الهدى فيتخلفون ويعرضون ويعبر عن استسلامهم بأنهم {يتبعون الداعي لا عوج له} تنسيقاً لمشهد القلوب والأجسام مع مشهد الجبال التي لا عوج فيها ولا نتوء! ثم يخيم الصمت الرهيب والسكون الغامر: {وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همسا}، {وعنت الوجوه للحي القيوم}. وهكذا يخيم الجلال على الموقف كله، وتغمر الساحة التي لا يحدها البصر رهبة وصمت وخشوع. فالكلام همس. والسؤال تخافت. والخشوع ضاف. والوجوه عانية. وجلال الحي القيوم يغمر النفوس بالجلال الرزين. ولا شفاعة إلا لمن ارتضى الله قوله. والعلم كله لله. وهم لا يحيطون به علماً.

والظالمون يحملون ظلمهم فيلقون الخيبة، والذين آمنوا مطمئنون لا يخشون ظلماً في الحساب ولا هضماً لما عملوا من صالحات. إنه الجلال، يغمر الجو كله ويغشاه، في حضرة الرحمن"[٢٣].

[٢٣] قطب، سيد: في ظلال القرآن، ١٣٧/٥.

المبحث الثاني

ميزات الاتجاه العقدي في التفسير عند سيد قطب

أولاً: الانطلاق من القرآن والسنة في تقرير العقيدة

قرر سيد قطب في ظلاله منهجه في تناول قضية العقيدة، وذلك في معرض نقده لمناهج بعض السابقين القائمة على الفلسفة والجدل. يقول رحمه الله عند قوله تعالى: ((سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ * قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ))[٢٤]. "وقضية الجبر والاختيار كثر فيها الجدل في تاريخ الفكر الإسلامي بين أهل السنة والمعتزلة والمجبرة والمرجئة .. وتدخلت الفلسفة الإغريقية والمنطق الإغريقي واللاهوت المسيحي في هذا الجدل، فتعقد تعقيداً لا تعرفه العقلية الإسلامية الواضحة الواقعية، ولو أخذ الأمر بمنهج القرآن المباشر الميسر الجاد، ما اشتد هذا الجدل وما سار في ذلك الطريق الذي سار فيه"[٢٥].

فالأستاذ سيد كلامه واضح في أن العقيدة يجب أن تحكم وتأخذ بمنهج القرآن، وأن كل المناهج التي ظهرت في التاريخ الإسلامي وحكّمت غير القرآن في العقيدة كانت وبالاً على العقيدة الإسلامية وعلى طريقة فهمها.

---

[٢٤] سورة الأنعام: الآية ١٤٨

[٢٥] قطب: في ظلال القرآن، ١٢٢٦/٣

ويزيد سيد هذه القضية وضوحاً من خلال نقده لبعض التوجهات القائمة على الدخول إلى عالم القرآن بمقررات سابقة، وما يترتب على ذلك من تشويه العقيدة وتحريفها وفق هذه المقررات. يقول رحمه الله عند قوله تعالى: ((وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا * وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآَنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا))[٢٦]. يقول: "من أين جاءوا بهذا؟ من أين جاءوا بهذه المقررات التي يحاكمون إليها نصوص القرآن والحديث، إن الطريق الأمثل في فهم القرآن وتفسيره وفي التصور الإسلامي وتكوينه أن ينفض الإنسان من ذهنه كل تصور سابق، وأن يواجه القرآن بغير مقررات تصورية أو عقلية أو شعورية سابقة وأن يبني مقرراته كلها حسبما يصور القرآن والحديث حقائق هذا الوجود، ومن ثم لا يحاكم القرآن والحديث لغير القرآن، ولا ينفي شيئاً يثبته القرآن ولا يؤوله، ولا يثبت شيئاً ينفيه القرآن أو يبطله، ما عدا المثبت والمنفي في القرآن فله أن يقول فيه ما يهديه إليه عقله وتجربته. نقول هذا بطبيعة الحال للمؤمنين بالقرآن وهم مع ذلك يؤولون نصوصه هذه لتوائم مقررات سابقة في عقولهم وتصورات سابقة في أذهانهم لما ينبغي أن تكون عليه حقائق الأمور"[٢٧].

فهو يدعو وبأعلى صوته وبمضاء لسانه وسنانه أن العقيدة مبناها على القرآن والحديث، وفهم السلف لهما، وأن أي خروج عن هذين المصدرين فيه الشطط والتيه، والرجوع إلى الفرق الضالة التي ظهرت في التاريخ الإسلامي وحرفت مسار العقيدة. وهو يصرح بأكثر من ذلك، ففي تفسيره لسورة الفلق يقول: "وأحاديث

[٢٦] سورة الجن: الآية ٨-٩

[٢٧] قطب: في ظلال القرآن، ٦/٣٧٣٠-٣٧٣١

الآحاد لا يؤخذ بها في أمر العقيدة، والمرجع هو القرآن، والتواتر شرط للأخذ بالأحاديث في أصول الاعتقاد"[٢٨]. فالمرجع عنده إذن في العقيدة القرآن وما تواتر من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم وليس شيئاً سواهما. وإن كنا نعارضه في قضية التواتر لكن هذا لا يمنع أن ننصف الشهيد ونبين وجه الحق في مصدرية العقيدة عنده.

ثانياً: تحديد دور العقل في فهم العقيدة

بالنظر إلى مناهج المفسرين في تحديد المقدار الذي لعبه العقل في فهم العقيدة، نجد أن منهم من غالى في إعطاء العقل حرية واسعة في ذلك، وترتب على ذلك إنكار بعض القضايا الغيبية والمعجزات أو تأويلها على خلاف الظاهر، لأن العقل عندهم لم يستطع استيعابها، وهذا المنهج واضح عند الزمخشري في الكشاف[٢٩] وعند محمد عبده ورشيد رضا في المنار[٣٠]. بينما نجد بعض المفسرين أهملوا دور العقل في فهم العقيدة وجنحوا نحو الأساطير والخرافات، وهذا الأمر ظاهر في تفاسير بعض الصوفية[٣١]. أما الأستاذ سيد فقد كان رائد العصر في المنهج الوسطي من خلال وقوفه على مسافة منضبطة بين النص والعقل. فها هو يوضح بجلاء دور العقل، ويحدده بدقة متناهية، يقول: "إذن ما هي وظيفة هذا العقل

[٢٨] المرجع السابق، ٤٠٠٨/٦

[٢٩] انظر: الزمخشري, محمود بن عمر: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأوي خرج أحاديثه: جليل شيحا. ط : ٢ . بيروت : دار المعرفة .٢٠٠٥م، ٣١٤/٢.

[٣٠] انظر: رضا، محمد رشيد: تفسير المنار، بيروت: دار المعرفة، ٣٢/٤.

[٣١] انظر على سبيل المثال: ابن عربي، محيي الدين: تفسير ابن عربي، تحقيق: عبد الوارث محمد علي، بيروت: دار الكتب العلمية، ٣٢٠/١.

البشري؟ وما دوره في قضية الإيمان والهدى، وفي قضية منهج الحياة ونظامها؟ إن دور هذا العقل أن يتلقى عن الرسالة، ووظيفته أن يفهم ما يتلقاه عن الرسول صلى الله عليه وسلم، ومهمة الرسول أن يبلغ ويبين، ويستنقذ الفطرة الإنسانية مما يرين عليها من الركام، وينبه العقل الإنساني إلى تدبر دلائل الهدى وموحيات الإيمان في الأنفس والآفاق، وأن يرسم له منهج التلقي الصحيح، ومنهج النظر الصحيح، وليس دور العقل أن يكون حاكماً على الدين ومقرراته من حيث الصحة والبطلان، والقبول والرضا بعد أن يتأكد من صحة صدورهما عن الله ...، إن هذه الرسالة تخاطب العقل بمعنى أنها توقظه، وتوجهه وتقيم له منهج النظر الصحيح، لا أنه هو الذي يحكم بصحتها أو بطلانها، وبقبولها أو رفضها، ومتى ثبت النص كان هو الحكم، وكان على العقل أن يقبله ويطيعه وينفذّه، سواء كان مدلوله مألوفاً أو غريباً عليه، إن دور العقل في هذا الصدد هو أن يفهم ما الذي يعنيه النص، وما مدلوله الذي يعطيه حسب معاني العبارة في اللغة والاصطلاح، وعند هذا الحد ينتهي دوره ...، وعند هذه النقطة الدقيقة يقع خلط كثير سواء ممن يريد تأليه العقل البشري فيجعلونه هو الحكم في صحة أو بطلان المقررات الدينية الصحيحة، أو ممن يريدون إلغاء العقل، ونفي دوره في الإيمان والهدى"[٣٢].

فالأستاذ سيد يلتزم بالمنهج الوسطي في هذه القضية، فهو لا يجعل العقل حكماً على مقررات الدين والعقيدة، ولا يبطل دور العقل في الهداية والإيمان. يقول رحمه الله: "والطريق الوسط الصحيح هو الذي بيناه هنا من أن الرسالة تخاطب العقل ليدرك مقرراتها، وترسم له المنهج الصحيح للنظر في هذه المقررات، وفي شؤون الحياة كلها.

[٣٢] قطب: في ظلال القرآن، ٢/٨٠٦-٨٠٧

فإذا أدرك مقرراتها –أي إذا فهم ماذا يعني النص– لم يعد أمامه إلا التصديق والطاعة والتنفيذ"[٣٣].

ثم يرد على الذين قدموا العقل على النص فيقول: "إن العقل ليس إلهاً ليحاكم بمقرراته الخاصة مقررات الله"[٣٤].

وقد طعن البعض[٣٥] في سيد حينما فهموه خطأ أنه يلغي دور العقل ويعطله عن العمل، وأنه يدعو إلى التبعية والتقليد، والحقيقة أنه يحترم العقل، ولا تخفى عليه مكانته في الإسلام، ولكن ضمن حدود لا يتعداها، وللرد على هؤلاء يقول: "إن الإسلام دين العقل، نعم .. بمعنى أنه يخاطب العقل بقضاياه ومقرراته ولا يقهره بخارقة مادية لا مجال له فيها إلا الإذعان، ويخاطب العقل بمعنى أنه يصحح له منهج النظر ويدعوه إلى تدبر دلائل الهدى، وموحيات الإيمان في الأنفس والآفاق"[٣٦].

ثم يبين الأستاذ سيد الصلة بين العقل وبين الوحي عند تفسيره لقوله تعالى: ((قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ))[٣٧]، يقول رحمه الله: "إن هذا العقل الذي وهبه الله للإنسان قادر على تلقي ذلك الوحي وإدراك مدلولاته، وهذه وظيفته، ثم هذه هي فرصته في النور والهداية؛ وفي الانضباط بهذا الضابط الصحيح الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

---

[٣٣] المرجع السابق، ٨٠٧/٢

[٣٤] المرجع السابق، ٨٠٧/٢

[٣٥] انظر: نائف، نبيل حاجي: مقال على النت بعنوان "كيف ننظر للغرب٢" http://syria-news.com/dayin/mosah/readnews.php?id=6229

[٣٦] المرجع السابق، ٨٠٧/٢

[٣٧] سورة الأنعام، الآية ٥٠

فأما حين يستقل هذا العقل البشري بنفسه بعيداً عن الوحي، فإنه يتعرض حينئذ للضلال والانحراف وسوء الرؤية ... وسوء التدبير ... والذين يزعمون للعقل البشري درجة من الأصالة في الصواب كدرجة الوحي، باعتبار أن كليهما –العقل والوحي– من صنع الله فلا بد أن يتطابقا، هؤلاء إنما يستندون إلى تقريرات عن قيمة العقل قال بها بعض الفلاسفة من البشر، ولم يقل بها الله سبحانه! والذين يرون أن هذا العقل يغني عن الوحي –حتى عند فرد واحد من البشر مهما بلغ عقله من الكبر– إنما يقولون في هذه القضية غير ما يقول الله، فالله قد جعل حجته على الناس هي الوحي والرسالة، ولم يجعل هذه الحجة هي عقلهم البشري، ولا حتى فطرتهم التي فطرهم الله عليها من معرفة ربها الواحد والإيمان به. لأن الله سبحانه يعلم أن العقل وحده يضل، وأن الفطرة وحدها تنحرف. وأنه لا عاصم لعقل ولا لفطرة، إلا أن يكون الوحي هو الرائد الهادي، وهو النور والبصيرة"[٣٨].

نستنتج مما سبق أن رؤية سيد قطب لدور العقل في فهم العقيدة تتلخص في الأمور الآتية:

١. الإسلام دين العقل، فهو لا يلغي دور العقل أو يحجمه أو يضيّقه.
٢. وظيفة العقل هي الأخذ عن الوحي وعدم الخروج عن نطاقه، وهي التدبر والتأمل في الكتاب المقروء والكتاب المنظور.
٣. لا يستقل العقل بمنهج وتصور يتصادم فيه مع الوحي والنص.
٤. العقل تابع للوحي والنص ومرتبط به غير منفصل عنه.
٥. العقل ليس إلهاً يُعبد أو يحاكم إليه، وليس هو الدين أو العقيدة أو المنهج.

[٣٨] قطب: في ظلال القرآن، ١٠٩٧/٢-١٠٩٩.

٦. إذا عمل العقل ضمن منهجية الوحي فإن آفاق عمله واسعة جداً تسع عالم الشهادة كله وجزء من عالم الغيب.

ثالثاً: تبني المنهج السلفي في الاعتقاد

دعا سيد قطب صراحة إلى تبني المنهج السلفي في العقيدة. ولكن من هم السلف؟ وما هي ركائز المنهج السلفي في العقيدة؟ وهل التزم بها سيد قطب أم لا؟

يقول الشيخ أحمد آل بوطامي: "المراد بمذهب السلف ما كان عليه الصحابة الكرام ﷺ، وأعيان التابعين لهم بإحسان، وأتباعهم، وأئمة الدين ممن شهد له بالإمامة وعرف عظم شأنه في الدين، وتلقى الناس كلامهم خلفاً عن سلف كالأئمة الأربعة والسفيانين، والليث بن سعد، وابن المبارك، والنخعي، والبخاري ومسلم وسائر أصحاب السنن، دون من رمي ببدعة ... مثل الخوارج والروافض والمرجئة والجبرية والجهمية والمعتزلة وسائر الفرق الضالة"[٣٩].

أما ركائز المنهج السلفي فهي[٤٠]:

١) تقديم الشرع على العقل.
٢) رفض التأويل الكلامي.
٣) الاستدلال بالآيات والبراهين القرآنية.

---

[٣٩] آل بوطامي، أحمد بن حجر آل بوطامي: العقائد السلفية بأدلتها النقلية والعقلية، ٢مج، الاسكندرية: دار الايمان للطبع والنشر والتوزيع، ١٦/١.

[٤٠] حلمي، د: مصطفى: قواعد المنهج السلفي في الفكر الإسلامي، ط٢، الاسكندرية: دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع،١٩٩٢، ص١٨٧-١٩٤.

فهل التزم الأستاذ سيد بهذه القواعد وعمل بها؟ سبق بيان موقف سيد قطب من العقل، ودعوته الواضحة إلى تقديم الشرع على العقل، بل إنه أنكر على مدرسة المنار في التفسير إعطاءها العقل حرية واسعة في التعامل مع النص، فقال: "وقد تأثر تفسير الأستاذ الإمام محمد عبده لجزء عم بهذه النظرة تأثيراً واضحاً وتفسير تلميذه محمد رشيد رضا وتفسير تلميذه الآخر الأستاذ الشيخ المغربي لجزء تبارك حتى صرح مرات بوجوب تأويل النص ليوافي مفهوم العقل، وهو مبدأ خطير، فإطلاق كلمة العقل يراد الأمر إلى شيء غير واقعي، فهناك عقلي وعقلك وعقل فلان وعقل علان وليس هناك عقل مطلق لا يتناوبه النقص والهوى والشهوة والجهل يحاكم النص القرآني إلى مقرراته، وإذا أوجبنا التأويل ليوافق النص هذه العقول الكثيرة فإننا ننتهي إلى فوضى"[٤١].

بهذه الصراحة والوضوح، وبهذه الغيرة على العقيدة والدين، يثبت سيد للخصوم أنه يسير مع المنهج السلفي، وأنه يجدد لهذا المنهج هذه القاعدة حين حاول البعض أن يدرسها ويطمسها. ومن أقواله الدالة على هذه القضية – إضافة لما سبق– ما يلي:

١) التأكيد على استقاء تصوراتنا عن الوجود والكون من خالق هذا الكون. يقول :"فكل مقرراتنا عن الوجود، وكل تصوراتنا عن الكون ينبغي أن تنبع أولاً من مقررات خالق هذا الكون"[٤٢]. ويقول في موضع ثانٍ: " هنالك قاعدة مأمونة في مواجهة النصوص القرآنية لعل ههنا مكان تقريرها، إنه لا يجوز لنا أن نواجه

[٤١] قطب سيد: خصائص التصور الإسلامي ومقوماته. ط٤. بيروت دار الشروق.١٩٧٨. ص٢٢

[٤٢] قطب: في ظلال القرآن، ٣٤٧٨/٦.

النصوص القرآنية بمقررات عقلية سابقة، لا مقررات عامة، ولا مقررات في الموضوع الذي تعالجه النصوص، بل ينبغي أن نواجه هذه النصوص لنتلقى منها مقرراتنا، فمنها نتلقى مقرراتنا الإيمانية، ومنها نكّون قواعد منطلقنا وتصوراتنا جميعاً"[٤٣].

٢) التأكيد على فهم قضايا الغيب من خلال نصوص القرآن والسنة، فيقول عند قوله تعالى: ((وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ))[٤٤]، يقول: "ونحن –على منهجنا في هذه الظلال– لا نتعرض لهذه الأمور الغيبية بتفصيل لم يرد به نص قرآني أو حديث نبوي صحيح متواتر فهي من أمور الاعتقاد التي لا يلتزم فيها إلا بنصٍ هذه درجته، ولكننا في الوقت ذاته لا نقف موقف الإنكار والرفض ... ولكننا لا نعلم الكيفية التي زيّن لهم بها أعمالهم، الكيفية فقط هي التي لا نجزم بها، ذلك أن أمر الشيطان كله غيب ولا سبيل لنا إلى الجزم بشيء من أمره إلا في حدود النص المسلّم، والنص هنا لا يذكر الكيفية، إنما يثبت الحادث، فالي هنا ينتهي اجتهادنا، ولا نميل إلى المنهج الذي تتخذه مدرسة الشيخ محمد عبده في التفسير، من محاولة تأويل كل أمر غيبيّ من هذا القبيل تأويلاً معيناً، ينفي عنه الحركة الحسية عن هذه العوالم"[٤٥].

---

[٤٣] المرجع السابق، ٦/٣٩٧٩.

[٤٤] سورة الأنفال: الآية ٤٨.

[٤٥] قطب: في ظلال القرآن، ٣/١٥٣١.

٣) بيان خطأ الفرق والمذاهب التي بحثت مسائل العقيدة بتغليبها العقل على النقل. يقول رحمه الله: "والذين أثاروا قضايا القضاء والقدر، والجبر والاختيار، وإرادة العبد وكسبه، ليجعلوا منها مباحث لاهوتية، تخضع لما تتصوره عقولهم من فروض وتقديرات إنما يجانبون منهج القرآن في عرض هذه القضية في صورتها الواقعية التقريرية البسيطة، التي تقرر أن كل شيء إنما يكون بقدر الله"[٤٦].

هذه الأقوال لسيد تؤكد على أنه لم يخرج عن المنهج السلفي في العقيدة أو في أصولها، ولا ضير أن يختلف سيد في الفروع مع غيره. إذا عرفنا أن هذا هو منهج سيد قطب، فإننا نستغرب أشد الاستغراب من أناس نسبوا أنفسهم إلى السلف، فكانوا أشد الناس لجاجة وجدلا حول تفسير الظلال، بل وصل بهم الأمر إلى اتهام سيد بالانحراف في عقيدته[٤٧]، وما ذلك إلا لأوهام عشعشت في عقولهم. والحقيقة أن مصطلح السلفية أُسيء فهمه واستغلاله في العصر الحديث، حيث يدعي البعض أنه الوارث الوحيد للسلف، ومن ثم لا سلفي غيره، أو يضيق هذا المفهوم فيجعله قاصرا على مسائل جزئية فرعية يجوز فيها الخلاف. لا بد أن يحرر هذا المصطلح من هذه القيود حتى لا يبقى سيفاً مسلطاً على رقاب هذه الأمة.

رابعاً: الرد على الشبهات والأقوال الشاذة، من الملامح البارزة للاتجاه العقدي في تفسير سيد قطب، الرد على الافتراءات والشبهات والأقوال الشاذة، التي خرجت من

[٤٦] المرجع السابق ١٠٦٦/٢.

[٤٧] انظر على سبيل المثال: المدخلي، ربيع: أضواء إسلامية على عقيدة سيد قطب وفكره، السعودية: مكتبة الغرباء، ط١، ١٩٩٣م.

أفواه بعض الغربيين تارة، ومن بعض العلماء والكتّاب والمفسرين تارة أخرى. وسنكتفي بذكر بعض هذه الردود:

١) **الرد على أصحاب النظرية الوجودية والداروينية**، يقول عند قوله تعالى: ((وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ * وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ))[٤٨]. يقول: "إن مسألة الوجودية الكبرى هي هذا التصور النكد الخبيث، تصور الوجود الكوني بل الوجود الجماعي للبشرية ذاتها، معاكساً في طبيعته للوجود الفردي الإنساني، إنه تصور بائس لا بد أن ينشئ حالة من الانزواء، والانكماش والعدمية، أو ينشئ حالة من الاستهتار والتمرد والفردية، وفي كلتا الحالتين لا يكون إلا القلق المضني والبؤس النفسي والعقلي، والشرود في التيه؛ تيه التمرد وتيه العدم، وهما سواء، وهي ليست مسألة الوجودية وحدها من مذاهب الفكر الأوروبي، إنها مأساة الفكر الأوروبي كله بكل مذاهبه واتجاهاته، بل مأساة الجاهلية كلها في جميع أزمانها وبيئاتها، المأساة التي يضع الإسلام حداً لها بعقيدته الشاملة"[٤٩]. ويقول في سياق رده على النظرية الداروينية: "وعلى أي حال فإن مجموع النصوص القرآنية في خلق آدم عليه السلام وفي نشأة الجنس البشري، ترجح أن إعطاء الكائن خصائصه الإنسانية ووظائفه المستقلة، كان مصاحباً لخلقه، وأن الترقي في تاريخ الإنسان كان ترقياً في بروز هذه الخصائص ونموها وتدريبها واكتسابها الخبرة العالية، ولم يكن ترقياً فيه وجود الإنسان، من

[٤٨] سورة الأعراف، الآية ١٠-١١.

[٤٩] قطب: في ظلال القرآن، ١٢٦٣/٣.

تطور الأنواع حتى انتهت إلى الإنسان كما تقول الداروينية، وحفريات دارون وما بعدها لا تستطيع أن تثبت في يقين مقطوع به أن هذا النوع تطور تطوراً عضوياً من النوع الذي قبله من الناحية الزمنية، وفق شهادة الطبقة الصخرية التي يوجد فيها"[٥٠].

٢) **الرد على بعض التفسيرات العقديّة لمدرسة المنار**، فقد رد على الشيخ محمد عبده في قضية أصحاب الفيل والحجارة التي أرسلها الله عليهم والتي اعتبرها محمد عبده مرض الجدري[٥١] فقال رحمه الله راداً مثل هذا التفسير بل مثل هذا المنهج في التفسير ومثل هذا المنهج في تحكيم العقل في قضايا الغيب والخوارق: "إننا ندرك ونقدر دوافع المدرسة العقلية التي كان الأستاذ الإمام رحمه الله على رأسها في تلك الحقبة، ندرك ونقدر دوافعها إلى تضييق نطاق الخوارق والغيبيات في تفسير القرآن الكريم وأحداث التاريخ، ومحاولة ردها إلى المألوف المكشوف من السنة الكونية.. ولكن مواجهة ضغط الخرافة من جهة وضغط الفتنة بالعلم من جهة أخرى، تركت آثارها على تلك المدرسة من المبالغة في الاحتياط، والميل إلى جعل مألوف السنن الكونية هو القاعدة الكليّة لسنة الله، فشاع في تفسير الأستاذ الشيخ محمد عبده –كما شاع في تفسير تلميذه الشيخ رشيد رضا والأستاذ الشيخ عبد القادر مغربي رحمهم الله جميعاً– شاع في هذه المدرسة الرغبة الواضحة في رد الكثير من الخوارق إلى مألوف سنة الله دون الخارق منها. وإلى الحذر والاحتراس الشديد في تقبّل الغيبيات،....إن هناك قاعدة مأمونة في

[٥٠] المرجع السابق، ٣/١٢٦٤-١٢٦٥.

[٥١] انظر: عبدة، محمد: تفسير جزء عم، القاهرة: مطبعة دار الشعب، ص١٥٨.

مواجهة النصوص القرآنية لعل هنا مكان تقريرها، إنه لا يجوز لنا أن نواجه النصوص القرآنية بمقررات عقلية سابقة"[٥٢].

٣) **الرد على أستاذه العقاد في قضية الترقي في العقائد**، حيث يرى العقّاد ترقي الإنسان في العقائد[٥٣] كما يترقى في العلوم والصناعات[٥٤] فيقول رحمه الله راداً عليه: "واضح سواء في رأي الكاتب نفسه أو مما نقله ملخصاً من آراء علماء الدين المقارَن، أن البشر هم الذين ينشئون عقائدهم بأنفسهم، ومن ثم تظهر فيها أطوارهم العقلية والعلمية والحضارية والسياسية ... والذي لا شك فيه أن الله سبحانه يقرر في كتابه الكريم تقريراً واضحاً جازماً، شيئاً آخر غير ما يقرره صاحب كتاب (الله)[٥٥] متأثراً فيه بمنهج علماء الأديان المقارنة، وإن الذي يقرره الله سبحانه أن آدم عليه السلام وهو أول البشر عرف حقيقة التوحيد كاملة، وعرف نزاهة التوحيد غير مشوبة بشائبة من التعدد والتثنية"[٥٦].

ويظهر من خلال هذه النماذج في ردوده على الشبهات والانحرافات، أن سيد كان صاحب خلق رفيع، وذا أدب جم، وكان رجلاً عالماً أديباً في مناقشته العلماء، واثقاً من علمه وصحة منهجه، كيف لا وهو ينطلق في فهمه وتقريراته من النص القرآني؟

---

[٥٢] قطب: في ظلال القرآن، ٦/٣٩٧٨-٣٩٧٩ باختصار.

(٥٣) المقصود بترقي الإنسان في العقائد كما يرى العقاد: أن الإنسان الأول كان همجياً، وكان على الشرك، ثم تعرَّف تدريجياً على التوحيد كما تعرف على الصناعات.

[٥٤] انظر: العقاد، عباس محمود: الله (كتاب في نشأة العقيدة الإلهية)، القاهرة: دار الشعب، ص١.

[٥٥] يقصد بذلك العقاد.

[٥٦] قطب : في ظلال القران، ٤/١٨٨٣-١٨٨٥ باختصار.

المبحث الثالث

قضايا عقدية عند سيد قطب في الميزان

أولاً: بين الحاكمية والتكفير

يرى سيد أن الحاكميّة تمثل جوهر العقيدة، ورافضها كافر مرتدّ لأنّه ينازع الله في التشريع، سواء كان حاكما أو محكوماً، يقول رحمه الله: "إن الحاكميّة من خصائص الألوهيّة، فمن ادّعى الحقّ فيها فقد نازع الله أولى خصائص الألوهيّة، ومن نازع الله أولى خصائص الألوهيّة فقد كفر كفرا بواحا"[٥٧].

ولكن لا بدّ لنا هنا من تجلية حقيقة موقف سيد من قضية التكفير. فهل كفّر سيد الحكّام والمحكومين دون ضوابط؟ وهل يعتبر أن مجتمعات المسلمين اليوم مجتمعات كافرة؟ وهذه قضية حساسة لا بد من بيانها، لأن بعض الجماعات والأحزاب التكفيرية على أرض الواقع اعتمدت على أقوال سيد وأفكاره في هذه المسألة، حيث قالوا إن سيد يكفر المسلمين حكاماً ومحكومين، وأنه ليس مسلماً عنده إلا من كان عضواً في الجماعة المسلمة أو التنظيم الإسلامي[٥٨]. فهل هذه هي حقيقة موقف سيد من هذه القضية؟

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: "فإن الإيجاب والتحريم والثواب والعقاب والتّكفير والتّفسيق هو إلى الله سبحانه ورسوله صلى الله عليه وسلم، ليس لأحد في هذا حكم، وإنّما على النّاس إيجاب ما أوجبه الله ورسوله، وتحريم ما حرّمه الله

---

[٥٧] قطب : في ظلال القران، ١٩٩٠/٤ .

[٥٨] انظر : الخالدي، صلاح: في ظلال القرآن في الميزان، السعودية: دار المنارة، ١٩٨٦م، ص: ٢٠٥.

ورسوله"[٥٩]. فهل كفّر سيد من لم يكفّره الله ورسوله؟ للإجابة على هذا التساؤل نستعرض بعض أقوال سيد في التكفير:

١) يقول سيد في معرض تعقيبه على آيات الربا عند قول الله تعالى: ((يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ))[٦٠]، يقول: "وهذا التّعقيب هنا قاطع في اعتباره من يصرّون على التعامل الرّبوي -بعد تحريمه- من الكفّار الآثمين، الذين لا يحبّهم الله، وما من شك في أن الذين يحلّون ما حرّم الله ينطبق عليهم وصف الكفر والإثم، ولو قالوا بألسنتهم ألف مرّة لا إله إلا الله محمد رسول الله، فالإسلام ليس كلمة باللّسان، إنما هو نظام حياة ومنهج عمل، وإنكار جزء منه كإنكار الكل، وليس من حرمة الرّبا شبهة، وليس في اعتباره حلالا، وإقامة الحياة على أساسه إلا الكفر والإثم والعياذ بالله"[٦١]. واضح من قول سيد السابق أنه لا يكفر مجرد من يتعامل بالربا، بل كما قال هو بالنص يكفر من يستحل الحرام ويُصِرُّ عليه، ورأي سيد في هؤلاء موافق لرأي أهل السنة والجماعة[٦٢].

٢) يقول سيد في تعقيبه على آية: ((وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ))[٦٣]، يقول: "بهذا الحسم الصّارم الجازم، وبهذا التعميم الذي تحمله

---

[٥٩] ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم: مجموع الفتاوى، الرياض: دار عالم الكتب، ١٤١٢ هـ/١٩٩١م، ٥٤٥/٥ .

[٦٠] سورة البقرة، الآية ٢٧٦ .

[٦١] قطب : في ظلال القران، ٣٢٨/١ .

[٦٢] انظر رأي أهل السنة والجماعة في تكفير مستحل الحرام في كتاب شرح العقيدة الطحاوية لأبي العز الحنفي تحقيق صلاح الخالدي.دمشق: دار القلم ٢٠٠٠م، ص:٢١٨.

[٦٣] سورة المائدة، الآية ٤٤ .

(من) الشرطية وجملة الجواب، بحيث يخرج من حدود الملابسة والزّمان والمكان، وينطلق حكما عاما على كل من لم يحكم بما أنزل الله، في أيّ جيل ومن أيّ قبيل، والعلّة هي التي أسلفنا، هي أن الذي لا يحكم بما أنزل الله، إنّما يرفض ألوهيّة الله، فالألوهيّة من خصائصها ومن مقتضاها الحاكميّة التّشريعيّة، ومن يحكم بغير ما أنزل الله، يرفض ألوهيّة الله وخصائصها من جانب، ويدّعي لنفسه هو حقّ الألوهيّة وخصائصها في جانب آخر. وماذا يكون الكفر إن لم يكن هو هذا وذاك؟ وما قيمة دعوى الإيمان أو الإسلام باللّسان، والعمل –وهو أقوى تعبيرا من الكلام– ينطق بالكفر أفصح من اللسان؟"[٦٤].

واضح أن كلام سيد السابق هو في الحكّام الذين لا يحكمون بما أنزل الله، وهذه قضية لم يكن سيد أول من قال بها، بل سبقه عشرات من المفسّرين والعلماء الذين كفّروا الحكّام الذين لا يحكمون بما أنزل الله، منهم: الإمام الطّبري[٦٥]، وابن كثير[٦٦]، وابن أبي العزّ شارح الطحاويّة الذي يقول: "إن الحكم بغير ما أنزل الله قد يكون كفرا ينقل عن الملّة، وقد يكون معصية كبيرة أو صغيرة.... وذلك بحسب حال الحاكم، فإنه من اعتقد أن الحكم بما أنزل غير واجب، وأنه مخير فيه، أو استهان به

[٦٤] قطب : في ظلال القرآن، ٨٩٨/٢ .

[٦٥] يقول في تفسيره بعد أن ذكر أقوالا عدّة: "إنّ الله تعالى عمّ بالخبر بذلك عن قوم كانوا بحكم الذي حكم به في كتابه جاحدين، وأخبر عنهم أنهم بتركهم الحكم على سبيل ما تركوه كافرين، وكذلك القول في كلّ من لم يحكم بما أنزل الله جاحدا له، هو بالله كافر، كما قال ابن عبّاس رضي الله عنه لأنه بجحوده حكم الله بعد أن أنزله في كتابه نظير جحود نبوّة نبيّه بعد علمه أنّه نبيّ" الطبري، محمد بن جرير : جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ١٥مج، ضبط وتوثيق : صدقي جميل العطار، ط١، بيروت : دار الفكر، ٢٠٠١، ٢٥٠/٤.

[٦٦] ابن كثير، اسماعيل بن كثير الدمشقي : تفسير القران العظيم، ٧مج، ط٢، بيروت : دار الفكر للطباعة والنشر. ط٢، ١٩٧٠، ٥٧٢/٢-٥٩١.

مع تيقّنه أنه حكم الله فهذا كفر أكبر، وإن اعتقد بوجوب الحكم بما أنزل الله وعلمه في هذه الواقعة، وعدل عنها، مع اعترافه بأنه مستحقّ للعقوبة، فهو عاص، ويسمى كافراً كفراً مجازياً "[٦٧].

فسيد لم يخرج عما قاله السابقون. صحيح أنه كان الأولى به أن يفصّل في المسألة كما فصّلها من سبقه من العلماء، إلا أن واقع الحكّام في زمان هؤلاء المفسّرين والعلماء يختلف كلياً عن واقعهم في زمان سيد قطب رحمه الله، فالحكّام في زمان سيد بدّلوا وحرّفوا الشريعة كلّها، وحكموا بجملة الأحكام الكفريّة، ونحّوا الشريعة بجملتها عن الحكم والتحاكم إليها، من هنا نعذر سيد بعدم التفصيل الذي فصّله من سبقه من المفسّرين.

٣) قول سيد عند تعقيبه على قول الله تعالى: ((وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ))[٦٨]، يقول: "فما يمكن أن يجمع الإيمان وعدم تحكيم شريعة الله، أو عدم الرضا بحكم هذه الشريعة، والذين يزعمون لأنفسهم أو لغيرهم أنهم مؤمنون، ثم هم لا يحكمون شريعة الله في حياتهم، أو لا يرضون حكمها إذا طبق عليهم، إنّما يدّعون دعوى كاذبة، وإنما يصطدمون بهذا النّص القاطع ((وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ)) فليس الأمر في هذا هو أمر عدم تحكيم شريعة الله من الحكّام فحسب، بل إنّه كذلك عدم الرّضا بحكم الله من المحكومين، يخرجهم من دائرة الإيمان، مهما ادّعوه باللسان. وهذا النّص هنا يطابقه النّص الآخر في سورة النّساء ((فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى

[٦٧] ابن أبي العز : شرح العقيدة الطحاوية، ٤٤٦/٢ .

[٦٨] سورة المائدة، الآية ٤٣ .

يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا))[٦٩]، فكلاهما يتعلق بالمحكومين لا بالحكّام، وكلاهما يخرج من الإيمان، وينفي صفة الإيمان عمّن لا يرضى بحكم الله ورسوله، ومن يتولّى عنه ويرفض قبوله"[٧٠].

وعبارة سيد الأخيرة تدل بشكل واضح على أنه لم يكفر المحكومين إلا في حالة الرضا بحكم الطاغوت ورفض حكم الله، وهذا هو عين كلام أهل السنّة والجماعة في القديم والحديث. يقول الأستاذ سالم البهنساوي: "فأقوال سيد هذه صريحة في أنه لا يقول بكفر الشّعوب المسلمة إلا إن عارضت حكم الله أو تركته، واحتكمت مختارة إلى غيره، لأنّ عدم الرضا لا يتحقق إلا بهذين الأمرين، المعارضة الصّريحة لحكم الله، والمعارضة الضّمنية بالاحتكام إلى حكم آخر"[٧١].

٤) حديثه عن الجاهلية حيث اعتبرها "حالة وضع، وليست فترة زمنيّة، وأنّها اليوم ضاربة أطنابها في كلّ أرجاء الأرض وفي كلّ شيع المعتقدات والمذاهب والأنظمة والأوضاع"[٧٢]، ووصف المجتمعات البشريّة اليوم بأنها "مجتمعات جاهليّة، وهي من ثمّ مجتمعات متخلّفة أو رجعيّة، بمعنى أنها رجعت إلى الجاهليّة بعد أن أخذ الإسلام بيدها"[٧٣].

---

[٦٩] سورة النساء، الآية ٦٥ .

[٧٠] قطب : في ظلال القران، ٨٩٥/٢ .

[٧١] البهنساوي، سالم : الحكم وقضية تكفير المسلم، الكويت، عمان : دار البحوث العلمية، دار البشير، ص١١٢.

[٧٢] قطب : في ظلال القران، ١٢٥٦/٣ .

[٧٣] المرجع السابق، ١٢٥٧/٣ .

فهل في هذا تكفير للمسلمين وللمجتمع الإسلامي بالجملة؟ يقول البهنساوي: "الألفاظ العامة للكتّاب والشرّاح وأوصافهم للمجتمع بأنّه جاهليّ أو على غير الإسلام، أو معدود على الدّيانة الإسلاميّة، لا تعطي حكما شرعيّا لكلّ أفراده، وهناك فرق بين الحكم الفقهي وبين الموعظة والزّجر"[٧٤].

ويرى الهضيبي كذلك -مستدلاً بالأحاديث الصحيحة- أن سيد قطب لا يعني تكفير المجتمع حينما يصفه بأنه جاهلي، يقول: "والجاهليّة كالضّلال والعصيان والفسوق والظّلم، من الألفاظ التي استعملت في القرآن وفي الأحاديث الصّحيحة، وتعني الخروج على أحكام الدّين الذي لا يبلغ أحيانا حدّ الخروج عن الملّة، وأحيانا يبلغ حدّ الخروج عن الملّة والردّة عن الإسلام. قال صلى الله عليه وسلم لأبي ذرّ: "إنّك امرؤ فيك جاهليّة"[٧٥]، ويعلّق البخاريّ الذي أورد الحديث بقوله: "المعاصي من أمر الجاهليّة لا يكفر صاحبها بارتكابها إلا بالشّرك"[٧٦]،[٧٧].

فسيد قطب رحمه الله لم يكفّر المسلمين، ولم يحكم عليهم بالردّة والخروج عن الملّة مطلقاً، وإنما فهم كلامه على هذه الصورة أحد رجلين: رجل لم يفهم كلامه الفهم السّليم الصّحيح، ولم يجمع كلماته في الموضوع الواحد ليستخلص منها الحكم الصّحيح، وآخر حمل كلامه على ظاهره ولم يستوعب المعنى الصّحيح من النّاحية الشّرعية واللّغوية للمصطلح الذي أطلقه .

---

[٧٤] البهنساوي : الحكم وقضية تكفير المسلم، ص١٥٣ .

[٧٥] البخاري، محمد بن إسماعيل: صحيح البخاري، ٣مج، ترقيم وتبويب : محمد فؤاد عبد الباقي، ط١، القاهرة: مكتبة الصفا، ٢٠٠٣م، كتاب الإيمان، باب المعاصي من أمر الجاهلية، ١/٣٠.

[٧٦] المرجع السابق، نفس الصفحة.

[٧٧] الهضيبي، حسن إسماعيل: دعاة لا قضاة، ط٣، بيروت: دار السلام، ١٩٧٨، ص٢٤١ .

وعليه فإنّنا نبرئ ساحة سيد من تهمة التّكفير، وهذا ما ذهب إليه الكثيرون ممن عرفوا سيد، أو كانوا على علاقة وثيقة بعلمه وفكره، ومنهم: محمّد قطب، وسالم البهنساوي، والهضيبي، ود. صلاح الخالدي، وغيرهم كثير.

ثانياً: الاحتجاج بخبر الآحاد في العقيدة

خبر الآحاد هو الخبر الذي لم يبلغ حد التواتر[٧٨]. وقد اختلف العلماء[٧٩] في مدى حجيته في العقيدة بعد اتفاقهم جميعاً على وجوب الأخذ بالخبر المتواتر في العقيدة، لأن الخبر المتواتر يفيد العلم. والحقيقة أن جمهور أهل السنة يأخذون بأخبار الآحاد في العقيدة ما دامت أحاديث صحيحة، وخاصة إذا وردت في البخاري ومسلم, بينما نجد بعض علماء أهل السنة يرفضون الأخذ بخبر الآحاد على اعتبار أنه لا يفيد العلم, بل يفيد الظن. فهل سيد يتبنى رأي الجمهور أم أنه يخالفهم ويقول بالرأي الثاني؟

إن النصوص الواردة عن سيد تفيد أنه يقول بالرأي الثاني, وأن حديث الآحاد لا يعمل به في العقيدة، وقد صرح بذلك في موضعين:

الأول: عند قوله تعالى: ((وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ))[٨٠]، حيث قال:

---

[٧٨] الخطيب، أحمد بن علي: الكفاية. تحقيق: أبو عبدالله السورقي. المدينة المنورة، المكتبة العلمية.

[٧٩] الجديع، عبدالله بن يوسف: تحرير علوم الحديث، ٢ مج،ط٣، بيروت: مؤسسة الريان ٢٠٠٧م، ٥٢/١.

[٨٠] سورة الأنفال، الآية ٤٨ .

"ونحن على منهجنا في هذه الظلال لا نتعرض لهذه الأمور الغيبية بتفصيل لم يرد به نص قرآني أو حديث نبوي صحيح متواتر, فهي من أمور الاعتقاد التي لا يلتزم فيها إلا بنص هذه درجته, ولكننا في الوقت ذاته لا نقف موقف الإنكار والرفض"[٨١].

الثاني: عند تفسيره لسورة الفلق، حيث قال: "وقد وردت روايات بعضها صحيح ولكنه غير متواتر أن لبيد بن الأعصم اليهودي سحر الرسول (صلى الله عليه وسلم) في المدينة، قيل أياماً وقيل أشهراً... حتى كان يخيّل إليه أنه يأتي النساء وهو لا يأتيهن في رواية ... ولكن هذه الروايات تخالف أصل العصمة النبوية في العمل والتبليغ, ولا تستقيم مع الاعتقاد بأن كل فعل من أفعاله (صلى الله عليه وسلم) وكل قول من أقواله سنة وشريعة ... وأحاديث الآحاد لا يؤخذ بها في أمر العقيدة, والمرجع هو القرآن, والتواتر شرط بالأخذ بالحديث في أصول الاعتقاد, وهذه الروايات ليست من المتواتر، فضلاً على أن نزول هاتين السورتين ـ الفلق والناس ـ في مكة هو الراجح مما يوهن أساس الروايات الأخرى"[٨٢].

وأمام هذين النصين يتبين لنا بوضوح أن سيد لا يأخذ بأخبار الآحاد في العقيدة، والذي دعاه لهذا الرأي هو رد الروايات التي يظن من خلالها وقوع الرسول (صلى الله عليه وسلم) في قضايا تخل بالعصمة مثل سحر الرسول (صلى الله عليه وسلم)، وكذلك بعض الروايات التي تذكر قضايا غيبية كحادثة إبليس يوم بدر.

وعليه لا بد من توضيح الآتي: إن سيد لا ينكر القضايا الغيبية، ولا يؤولها التأويل الباطل الذي يودي به إلى نكرانها حتى وإن جاءت بأخبار الآحاد، وقد صرح

---

[٨١] قطب : في ظلال القرآن، ١٥٣١/٣ .

[٨٢] المرجع السابق، ٤٠٠٨/٦ .

بذلك حين قال: "ولكننا في الوقت ذاته لا نقف موقف الإنكار والرفض", بل إن سيد عاب على الشيخ محمد عبده موقفه من القضايا الغيبية فقال: "ولا نميل إلى المنهج الذي تتخذه مدرسة الشيخ محمد عبده في التفسير من محاولة تأويل كل أمر غيبي من هذا القبيل تأويلاً معيناً ينفي الحركة الحسية عن هذه العوالم"[٨٣]. أما مسألة سحر الرسول (صلى الله عليه وسلم) فإن موقف سيد واضح منها، وهو أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) لم يُسحر، لأن ذلك في ظنه يؤثر في عصمته (صلى الله عليه وسلم), والذي نراه أن سيد رحمه الله قد جانبه الصواب في هذه المسألة، لأن الأحاديث الواردة في سحر الرسول (صلى الله عليه وسلم) صحيحة مذكورة في الصحيحين ولدى أصحاب السنن[٨٤]، وهذه القضية الفرعية التي خالف فيها سيد جمهور أهل السنة لا تجعله معتزلياً، ولا تعني اتهامه في عقيدته ودينه, أو الانتقاص من منزلته وعلمه[٨٥].

ثالثاً: موقف سيد من عقيدة وحدة الوجود

عقيدة وحدة الوجود نبعت أصلاً من مخلفات العقائد الإغريقية واليونانية والفلسفة، ولقد تبنت هذه العقيدة بعض التوجهات الصوفية المنحرفة، وتعني: "أنه ليس هناك موجود إلا الله، فليس غيره في الكون، وما هذه الظواهر التي نراها إلا مظاهر لحقيقة واحدة هي الحقيقة الإلهية، هذه الحقيقة التي تنوعت وجوداتها

---

[٨٣] المرجع السابق، ١٥٣١/٣ .

[٨٤] انظر: البخاري: صحيح البخاري،. باب السحر.حديث رقم: ٥٤٣٠، (٢١٤٧/٥). مسلم: صحيح مسلم، باب السحر، حديث رقم (٢١٨٩)، ١٧١٩/٤.

[٨٥] الخالدي : في ظلال القرآن في الميزان، ص٩٤ .

ومظاهرها في هذا الكون المشاهد، وليس هذا الكون إلا الله"[٨٦]. فهل سيد يقول مثل هذا الكلام؟ لننظر في كلام سيد الذي فُسّر على هذا النحو:

١. يقول سيد عند تفسيره لقوله تعالى: ((هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ))[٨٧]. "الأول والآخر مستغرقاً كل حقيقة الزمان, والظاهر والباطن مستغرقاً كل حقيقة المكان , وهما مطلقتان, ويتلفت القلب البشري فلا يجد كينونة لشيء إلا لله, وهذا كل مقومات الكينونة ثابتة له دون سواه حتى وجود هذا القلب ذاته لا يتحقق إلا مستمداً من وجود الله, فهذا الوجود الإلهي هو الوجود الحقيقي الذي يستمد منه كل شيء وجوده, وهذه الحقيقة هي الحقيقة الأولى التي يستمد منها كل شيء حقيقته وليس وراءها حقيقة ذاتية ولا وجود ذاتي لشيء في هذا الوجود... ولقد أخذ المتصوفة بهذه الحقيقة الأساسية الكبرى وهاموا بها وفيها، وسلكوا إليها مسالك شتى, بعضهم قال إنه يرى الله في كل شيء في هذا الوجود, وبعضهم قال إنه رأى الله من وراء كل شيء في هذا الوجود, وبعضهم قال: إنه رأى الله فلم ير شيئاً غيره في الوجود. وكلها تشير إلا الحقيقة إذا تجاوزنا عن ظاهر الألفاظ القاصرة في هذا المجال... إلا أنهم أهملوا الحياة بهذا التصوير"[٨٨].

٢. ويقول عند تفسيره لسورة الإخلاص: "إنها أحدية الوجود, فليس هناك حقيقة إلا حقيقته، وليس هناك وجود حقيقي إلا وجوده، وكل موجود آخر فإنما يستمد

---

[٨٦] عبد الخالق، عبد الرحمن: الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة، ط٤، القاهرة: دار الحرمين، ١٩٩٣م، ص١١٥.

[٨٧] سورة الحديد، الآية ٣ .

[٨٨] قطب : في ظلال القران، ٦/٣٤٧٩ – ٣٤٨٠ .

وجوده من ذلك الوجود الحقيقي، ويستمد حقيقته من تلك الحقيقة الذاتية, وهي من ثم أحدية الفاعلية، فليس سواه فاعلاً لشيء, أو فاعلاً في شيء في هذا الوجود أصلاً, وهذه عقيدة في الضمير وتفسير للوجود أيضاً... ومتى استقر هذا التصور الذي لا يرى في الوجود إلا حقيقة الله, فستصحبه رؤية هذه الحقيقة في كل وجود آخر انبثق عنها, وهذه درجة يرى فيها القلب يد الله في كل شيء يراه... وهذه هي مدارج الطريق التي حاولها المتصوفة فجذبتهم إلى بعيد، ذلك أن الإسلام يريد من الناس أن يسلكوا الطريق إلى هذه الحقيقة وهم يكابدون الحياة الواقعية"[٨٩].

فمثل هذا الكلام من سيد فهم منه البعض أنه يقول بوحدة الوجود, والرد على هذا الاتهام من وجوه:

أولاً: إذا جمعنا أقوال سيد في هذه المسألة، فإنه يتبين بما لا يدع مجالاً للشك، أن سيد ما كان يقصد بقوله هذا عقيدة وحدة الوجود, لأنه صرّح في أكثر من موضع بما يدل على خلافها. يقول: "يقوم التصور الإسلامي على أساس أن هناك ألوهية وعبودية, ألوهية ينفرد بها الله, وعبودية يشترك فيها كل من عداه, وكل ما عداه, فهناك إذن وجودان متميزان, وجود الله ووجود ما عداه من عبيد الله, والعلاقة بين الوجودين هي علاقة الخالق بالمخلوق والإله بالعبيد"[٩٠]. ويقول: "إن الإسلام يبدأ

[٨٩] قطب، سيد: في ظلال القرآن، ٤٠٠٢/٦ – ٤٠٠٣ بتصرف .

[٩٠] قطب، سيد : خصائص التصور الإسلامي، ص٢١٥ .

فيفصل فصلا تاماً كاملاً بين حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية, بحيث لا تقوم شبهة أو غبش حول هذا الفصل الحاسم الجازم"[٩١].

وعليه فإن كل منصف يجب عليه أن يحمل كلام سيد على المحمل الحسن، وأن يفسر كلامه التفسير السليم المتفق مع عقيدته السليمة، لا أن يدرجه في سلك الضالين القائلين بوحدة الوجود, ومع كل ذلك وكما يقول الخالدي: "كان الأولى بالأستاذ سيد أن تكون كلماته وجمله أكثر دقة وتحديداً وضبطاً للمعنى حتى لا يفهم منها إلا المعنى الواحد الذي يدين به سيد نفسه"[٩٢] .

الخاتمة: بعد استعراضنا لمعالم المنهج العقدي عند سيد قطب في ظلاله, نلخص فيما يلي أهم النتائج:

١. تنوعت اتجاهات التفسير المعاصر وتباينت، فمنهم من أوصلها إلى ثلاثة، وهي: الاتجاه السلفي، والاتجاه العقلي، والاتجاه العلمي. ومنهم من أوصلها إلى خمسة، وعدّ منها الاتجاه العقدي.

٢. الناظر في كتب التفسير المعاصرة، يجد أن أبرز من أبدع قلمه في إظهار العقيدة بمظهر الواقعية والحيوية والجاذبية، هو الشهيد سيد قطب رحمه الله؛ لأنه أخرجها من مأزق التعقيدات الفلسفية والكلامية، وربطها بالتطبيق الواقعي.

٣. أهم ما يميز الاتجاه العقدي في التفسير عند سيد قطب، هو الانطلاق من القرآن والسنة في تقرير العقيدة, وأنه لا يجوز الدخول إلى عالم القرآن بمقررات سابقة، لأن في ذلك تشويه لجمال العقيدة.

---

[٩١] المرجع السابق، ص١٥٥ .

[٩٢] الخالدي: في ظلال القرآن في الميزان، ص٨٩-٩٠

٤. من مظاهر الجدة والإبداع في المنهج العقدي عند سيد، ربط العقيدة بالأحكام الشرعية، وبنظرية التصوير الفني. وذلك لإبراز أثر العقيدة في الالتزام بالأحكام الشرعية والانقياد لها، ولزيادة الإقناع والتأثير.

٥. حدد سيد دور العقل في فهم العقيدة, فلا إفراط ولا تفريط، بل الوقوف على مسافة منضبطة بين النص والعقل. فوظيفة العقل هي التدبر والتأمل، وعدم الخروج عن نطاق الوحي، لأن العقل ليس هو الدين أو العقيدة أو المنهج, وإنما هو تابع للوحي والنص ومرتبط به.

٦. تبنى سيد المنهج السلفي في الاعتقاد, ودعا إليه بكل وضوح وصراحة، مؤكداً على أن استقاء تصوراتنا عن الكون والوجود إنما يؤخذ من خالق هذا الكون, وعلى أن فهم قضايا الغيب لا يكون إلا من خلال نصوص القرآن والسنة.

٧. رد سيد رحمه الله على الشبهات والأقوال الشاذة التي خرجت من بعض الكتاب والمفسرين, ومنها: الرد على أصحاب النظرية الداروينية, وبعض تفسيرات مدرسة المنار, كما رد على أستاذه العقاد في قضية الترقي العقدي.

٨. يرى سيد أن قضية الحاكمية تمثل جوهر العقيدة، وأن منكرها كافر مرتد؛ لأنه ينازع الله تعالى في التشريع سواء كان حاكما أو محكوما. ولا يعني ذلك تكفيره للمجتمعات وإن وصفها بالجاهلية, كما أنه لا يكفر المعيّن حتى يستحل ما حرم الله ويرضى بحكم الطاغوت.

٩. لم يخرج سيد عن رأي السلف في تكفير الحكام الذين لا يحكمون بشريعة الله، وخاصة إذا نحّوها بالكلية جانبا أو حرّفوها وحكموا بجملة الأحكام الكفرية كما هو الحاصل من بعض حكام زمانه.

١٠. يرى سيد أن أخبار الآحاد لا يُعمل بها في العقيدة لأن العقيدة مبناها على القطع والجزم وليس على الظن والاحتمال, والعقيدة لا تؤخذ إلا من القرآن والسنة المتواترة لأنها قطعية. وبناء عليه رد الأحاديث الصحيحة الواردة في سحر الرسول عليه السلام لأن ذلك يؤثر في عصمته.

١١. العبارات التي أوهمت البعض باتهام سيد بعقيدة وحدة الوجود يجب أن تحمل على المحمل الحسن, وأن يجمع بينها وبين العبارات الواضحة والصريحة بإنكاره لعقيدة وحدة الوجود من خلال تفريقه بين الألوهية والعبودية, وبين وجود الله وما عداه من عباد الله .

*****

المراجع:

- آل بوطامي، أحمد بن حجر آل بوطامي: العقائد السلفية بأدلتها النقلية والعقلية، ٢مج، الاسكندرية: دار الايمان للطبع والنشر والتوزيع.
- آل الشيخ، عبد الرحمن بن حسن: فتح المجيد شرح كتاب التوحيد، راجع حواشيه: عبد العزيز بن باز، ط١، القاهرة: دار الحديث، ١٩٩٢م.
- ابن أبي العز الحنفي: شرح العقيدة الطحاوية، تحقيق: صلاح الخالدي. دمشق: دار القلم ٢٠٠٠م.
- ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم: مجموع الفتاوى، الرياض: دار عالم الكتب، ١٤١٢هـ/١٩٩١م.
- ابن عربي، محيي الدين: تفسير ابن عربي، تحقيق: عبد الوارث محمد علي، بيروت: دار الكتب العلمية،
- ابن كثير، اسماعيل بن كثير الدمشقي : تفسير القران العظيم، ٧مج، ط٢، بيروت : دار الفكر للطباعة والنشر. ط٢، ١٩٧٠م.
- البخاري، محمد بن إسماعيل: صحيح البخاري، ٣مج، ترقيم وتبويب : محمد فؤاد عبد الباقي، ط١، القاهرة : مكتبة الصفا، ٢٠٠٣م.
- البهنساوي، سالم: الحكم وقضية تكفير المسلم، الكويت، عمان: دار البحوث العلمية، دار البشير.
- الجديع، عبدالله بن يوسف: تحرير علوم الحديث، ٢ مج، ط٣، بيروت: مؤسسة الريان، ٢٠٠٧م.

- حلمي، د: مصطفى: قواعد المنهج السلفي في الفكر الإسلامي، ١مج، ط٢، الاسكندرية: دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع،١٩٩٢م.
- الخالدي، صلاح عبد الفتاح: تعريف الدارسين بمناهج المفسرين. ط١، دمشق: دار القلم ٢٠٠٢م.
- في ظلال القرآن في الميزان ، السعودية: دار المنارة، ١٩٨٦م.
- الخطيب، أحمد بن علي: الكفاية. تحقيق: أبو عبدالله السورقي. المدينة المنورة، المكتبة العلمية.
- رضا، محمد رشيد: تفسير المنار، بيروت: دار المعرفة.
- الزمخشري, محمود بن عمر: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل. خرج أحاديثه : جليل شيحا . ط : ٢ . بيروت : دار المعرفة . ٢٠٠٥.
- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ١٥مج، ضبط وتوثيق: صدقي جميل العطار، ط١، بيروت: دار الفكر، ٢٠٠١م.
- عباس، أ.د. فضل حسن: التفسير أساسياته واتجاهاته، ط١، الأردن: مكتبة دنديس ٢٠٠٥م.
- عبد الخالق، عبد الرحمن: الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة، ط٤، القاهرة: دار الحرمين للطباعة، ١٩٩٣م.
- عبدة، محمد: تفسير جزء عم، القاهرة: مطبعة دار الشعب.
- العقاد، عباس محمود: الله (كتاب في نشأة العقيدة الإلهية)، القاهرة: دار الشعب.

- قطب, سيّد: التصوير الفني في القرآن . ط : ٤ . بيروت , القاهرة : دار الشروق . ١٩٧٨ .
- خصائص التصور الإسلامي ومقوماته. ط٤. بيرون دار الشروق.١٩٧٨م.
- في ظلال القرآن. ٦مج. ط: ١٧. القاهرة, بيروت: دار الشروق. ١٩٩٢م.
- معالم في الطريق، بيروت، دمشق : دار الشروق.
- المحتسب، د. عبد المجيد عبد السلام : اتجاهات التفسير في العصر الحديث، ط١، بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٧٣م.
- المدخلي، ربيع: أضواء إسلامية على عقيدة سيد قطب وفكره، السعودية: مكتبة الغرباء، ط١، ١٩٩٣م.
- مسلم، أبو الحسن القشيري النيسابوري: صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي ، بيروت.
- نائف، نبيل حاجي: مقال على النت بعنوان "كيف ننظر للغرب٢"

http://syrianews.com/dayin/mosah/readnews.php?id=6229

- الهضيبي، حسن إسماعيل: دعاة لا قضاة، ط٣، بيروت: دار السلام، ١٩٧٨م.